Enlightenment collection's
EISSN: 2830-8719 / ISSN:2716-7852
V:14, N°:1 – 2024, P.P:119-134

سلسلة الأنوار
EISSN:2830-8719 / ISSN: 2716-7852
المجلد 14، العدد 1-2024، ص.ص: 119-134

الفلسفة المستنيرة لأرسطو الصغير

the enlightened philosophy of Young Aristotle

مسعد أسماء

جامعة مصطفى اسطمبولي معسكر الجزائر، mesaad.asmaa@univ-mascara.dz

تاريخ الاستلام : 2022/11/21 ؛ تاريخ القبول : 2024/02/02 ؛ تاريخ النشر : 2024/02/20

الملخص

تعتبر مرحلة الطفولة قاعدة و أساسا لكل انشغال يخص مسائل الإنسان الكبرى ،هو الأمر الذي عرف تهميشا من طرف العديد من المفكرين أمثال ديكارت الذي استوجب التخلص من هذا الاهتمام جل الوصول للمعرفة الحقيقية كاعتراف بالقتل الرمزي للطفولة عنده و التي لم تحقق في نظر العديد من الفلاسفة منزلة الترقي بالقيمة الإنسانية.

هو الأمر الذي شكل حالة قلق حيال هذا الحقل المدفوع بالدهشة و التي أقرّ بها هيغل كالأم التي أنجبت الفلسفة ليتحقق من خلال هذا الترابط تجربة إبداعية تخرج بالطفل لدائرة التفلسف وفق ما يناسب عمره بالقول الكانطي كمشروع تنويري يطمح لتشييد مستقبل فكري منفتح يأخذ بالطفل لبناء حياة فلسفية تمكنه من فهم معنى أن يكون إنسانا تجاوزا للحظات الإنكار السابقة فأي رهانات فكرية تسمح لنا بتبني هذه الحاجة المعرفية؟

الكلمات المفتاحية: الطفولة، الدهشة، الفلسفة، مشروع تنويري، تجربة إبداعية.

Abstract

Childhood is considered a base and basis for all preoccupation with major human issues, which was known as marginalization by many thinkers such as Descartes, who necessitated getting rid of this concern in order to reach true knowledge as an admission of the symbolic killing of childhood for him, which did not achieve in the eyes of many philosophers status Upgrading the human value.It is the matter that constituted a state of concern about this field driven by astonishment, which Hegel acknowledged as the mother who gave birth to philosophy, in order to achieve through this interdependence a creative experience that takes the child into the circle of philosophy according to what suits his age, according to the Kantian saying, as an enlightening project that aspires to construct an open intellectual future that takes the child to build a philosophical life that enables him Who understood the meaning of being human, transcending the previous moments of denial, so what intellectual bets allow us to adopt this cognitive need?

Keywords : Childhood ،startled ، Philosophy ،Enlightenment project، a creative experience.

1.مقدمة:

تعد مرحلة الطفولة من أهم مراحل حياة الإنسان، فما يتلقاه الطفل في سنواته الأولى هو القالب المشكل لشخصيته وأنماط تفكيره و سلوكياته؛ استنادا إلى ذلك جاء اهتمام بعض المفكرين بفلسفة الطفل تحت شعار: طفل اليوم هو رجل الغد؛ إذ باشر هذا التوجه بتطوير الممارسات التعليمية التي تهدف إلى تحسين الفكر الإبداعي و تأسيس الفكر النقدي البناء عند الطفل، حققت هذه الفلسفة انتشارا واسعا في أمريكا ثم أوروبا لينقل برنامجها إلى جميع أنحاء العالم تدريجيا.

philosophie جذورها من الكلمة اليونانية بجزئين philo حب و Sophie و هي الحكمة ليتوجب على فلسفة الأطفال أن تكتفي بالجزء الأول من الكلمة ليعيش الطفل وكأنه أرسطو صغير يبني عالمه انطلاقا من حب التساؤل عما يدور حوله و حب التأمل والتخيل فيرسم ما هو مثالي له ليبقى الجزء الثاني من الكلمة Sophie أي الحكمة خاصا بمرحلة نضج الإنسان و هذه الحكمة تعود بنا إلى مرحلة الطفولة من خلال الدهشة التي قال عنها هيغل: هي الأم التي أنجبت الفلسفة؛ تحقق هذه الفلسفة مبتغاها من خلال مرافقتها لدهشة الطفل الدائمة بغرض تكوين عقل ناقد فتتميز كتجربة إبداعية عن تلك الطرق الكلاسيكية التقليدية في تعليمية الفلسفة، كما أكد كانط بإلحاح على ضرورة تحصيل العلم في سن مبكر باعتبار إهمال تعليم الطفل يجعل منه رجلا خشنا لكنه أوصى أيضاً بأن يكون ذلك وفق ما يناسب عمره ما يجعل هذه الفلسفة مشروعا فكريا تنويريا يهتم بالناشئة لبناء مستقبل منفتح عن طريق نحت ملامح الأسئلة الجريئة التي يطرحها الأطفال؛ هكذا تصبح فلسفة الطفل مدخلا لثقافة حوار المعلم مع المتعلم في حلقة تسمح للجميع بالتعبير عن آرائهم دون قيود فالطريقة التي نعلم بها المحتوى تساوي أو تفوق المحتوى ذاته و منه فممارسة فعل التفلسف في هذه المرحلة العمرية لا بد أن يكون بما يلائم من تفكير و شعور للقدرات العقلية أي ممارسة الاستدلال المنطقي المبسط عن طريق توليد الأسئلة كتعبير عن إعادة النظر في العلاقة المبنية على تساؤلات الأطفال و أجوبة الكبار التي غالبا ما كانت تنتهي بإقفال أبواب التساؤل و قمع الإبداع لتكون هذه الفلسفة الموجهة للطفل كمقدمة لبناء حياة فلسفية داخل كل إنسان حتى يفهم معنى أن يكون إنسانا.

تتبلج إشكالية ورقتنا البحثية من خلال محاولة ضبط مواضيع هذه الفلسفة وأدوات ممارستها باعتبار الطفل متعلما أو مستقبلا للفلسفة بقدرات ومؤهلات ناشئة وباعتباره في الوقت نفسه مشروعا حضاريا، إشكالية يمكن صياغتها على النحو الآتي:

ماهي المواضيع التي يجب أن نضمنها للفلسفة الموجهة للطفل؟ وما هي الآليات والأدوات التي تمكننا من جعلها مادة تعليمية في متناول هذه الفئة العمرية؟.

2. مشروع بناء الفكر النقدي الموجه للطفل:

1.2 دور التربية في توجيه مسار التفلسف عند الطفل:

يمتلك الأطفال عقولا مثل الإسفنج قدرتها على امتصاص المعلومات بشكل مبهر،كما لهم إمكانيات محفزة على التعلم و الاكتشاف كون الطفل يولد بذات مصاحبة للسؤال، ليأتي دور التربية في صقل هذا العقل الصغير دائم الدهشة فهي العملية التي تسمح للكائن الإنساني بتنمية قدراته المختلفة بهدف تحقيق مهمته كانسان ليعد العمل التربوي علما و فنا في آن واحد،كونه حصيلة تفاعل عوامل متعددة و عناصر متباينة تنصهر معا لتعطي للتربية معناها الحقيقي.

و من هذه العوامل نذكر القيم الأخلاقية و العادات الاجتماعية التي تساهم في توجيه سلوك الطفل داخل المجتمع كما أن مسار التربية الصحيح يعتمد أيضا على تأثير العوامل الثقافية و التعليمية هذا ما يبرز الدور المهم للتربية في تكوين الطفل بحكم أن سلامة المجتمع تعتمد على سلامة التربية فهي القاعدة الأولى في تأسيس نمو شامل موجه للطفل بعقله المنفتح . هذا ما أثار اهتمام الفلسفة أيضا لتحمل مسؤولية بناء طفل اليوم باعتباره منبع غذ مشرق ،فباشرت بتطوير البرامج التعليمية لإعداد العقل لكسب الفلسفة كما تعد الأرض للنبات و الزرع ، ليكون الهدف من هذه النقلة هو محاولة النهوض بالفكر الإبداعي ،و بناء الفكر النقدي عند الطفل، و هو مشروع يطرح منذ فترة ليست بالقصيرة ضمن الممارسات الجديدة للفلسفة ،لما لها من أهمية في تكوين الطفل منذ المرحلة الابتدائية ،ما يؤهله في أن يصبح بنظرة منفتحة فكريا مستقبلا، لكن إلى اليوم ما يزال هذا المشروع في شكل مبادرات فردية، رغم أهميته في بناء أجيال فولاذية مقاومة لحواجز الحياة، و خاصة في

الظروف التي يعيشون فيها اليوم، و الانتشار الرهيب لمواقع التواصل الاجتماعي ،التي ابتعدت كل البعد عن دورها الأصلي لتتجه بتدمير الأفراد، و بالأخص الفئات الصغيرة التي دق ناقوس الخطر محذرا عن تدهور صحتها العقلية، بعد أن قامت هذه المواقع بتسبيب عدم توازن بين النظام المعرفي و السلوكي، كما ألقت وسائل التواصل بسلبياتها على كثير من السلوكيات والقيم،ما أدّى إلى بناء هياكل جديدة من القيم الاجتماعية، والنظم السلوكية؛ لتتلقى المؤسسات التعليمية و التربوية انعكاسات هذا الأمر بوجود مشاكل تربوية تعليمية و تحصيلية و في ظل نمو هذه الملهيات التصاعدي، أصبحت ضرورة التعامل معها من ضروريات الحياة لكن ليس بالردع بل ببناء قاعدة من الوعي الفعال الذي يتأسس من خلال تفعيل محتوى ملائم ضمن المقررات والبرامج الدراسية يشمل طرق نافعة كبديل لهذا الاستبداد التقني و التكنولوجي .

هنا برز دور ورغبة الفلسفة في محاولة إعادة بناء عقلية جديدة تهتم بالناشئة،و لكون ممارسة التفلسف هو تنشيط للعقل وإعمال له ،و تحقيق لإنسانية الإنسان ،هذا ما تسعى له الفلسفة بتحصين الطفل من خطر أن يصبح مصابا بالبلادة الفكرية والشيخوخة العقلية مستقبلا ،خاصة مع وجود القوالب الجاهزة في البرامج التعليمية ،ما جعل إدخال النشاط الفلسفي لاهتمامات الأطفال محط إعجاب العديد من المفكرين ، والمطالبة بتعميمها على كافة البرامج التربوية منذ الطفولة المبكرة ،و بالرغم من ذلك لم يعرف هذا الاتجاه انتشارا واسعا في بداياته، و كأنه إجهاض للطفولة والنظر لممارسة التفكير الفلسفي انه يعلو على المستوى الذهني للأطفال في الابتدائي ،لأنهم لم يبلغوا بعد مرحلة النمو المعرفي الذي يؤهلهم لذلك مع تصور الفلسفة تفكير بالغ التعقيد يبحث في مسائل صعبة وغامضة بالنسبة للأطفال ، بينما الفلسفة هي تفكير في تجربة الإنسان المعاشة كما قال الفيلسوف الفرنسي جون لاكروا» .

هذا ما انطلق منه دعاة الفلسفة الموجهة للأطفال عند تأسيسهم لفلسفة مفصلة لفئة معينة، و هي فئة الطفولة باعتبارها الوعاء الذي تصب فيه المقومات الشخصية و النفسية للإنسان، كما أن خاصية التفلسف في صورته البسيطة دفين في أعماق الطفل الوجدانية و العقلية، يحتاج فقط حركة تنويرية من طرفنا فالتأمل الفلسفي لديها أساسه التعايش مع تفاصيل أكثر في هذه الحياة ،ما تطالب به هذه الفلسفة الموجهة للأطفال بإشراكهم بصورة اكبر مع واقعهم، و كأن تكون هذه الفئة تنطلق

في بناءها لهذا الاتجاه من ماهية الفلسفة؛ ليعيش الطفل و كأنه أرسطو صغير يبني عالمه بحب التساؤل عما يدور حوله و التخيل فيرسم ما هو مثالي له ليعيش في وسط ذهبي بين الرعونة والنضج ،ليبقى الجزء الثاني من الكلمة أي الحكمة خاصا بمرحلة نضج الإنسان، و هذه الحكمة تعود بنا إلى الطفولة من خلال الدهشة التي قال عنها هيغل" الأم التي أنجبت الفلسفة" لنجد فلسفة الأطفال قد حققت دعمها لدهشة الطفل الدائمة ،ولتكوين عقل ناقد منفتح على الآراء المختلفة ،لتتميز كتجربة إبداعية عن تلك الطرق الكلاسيكية التقليدية في تعليمية الفلسفة، ما أكد عنه كانط في أهمية تحصيل العلم في سن مبكرة باعتبار، أن إهمال تعليم الطفل يجعل منه رجلا خشنا لذلك لابد أن يكون هذا التعليم وفق ما يناسب عمر الطفل.

هذا ما جعل هذه الفلسفة التربوية محط استلهام العديد من الباحثين ،أمثال فلورنس و توني في دراستهم لأثر تفاعل التلاميذ العاديين، في تنمية المهارات المعرفية في فصول المونتيسوري ،أيضا دراسة هسن هيوا،بينج التي هدفت إلى تحديد مستوى التلاميذ المنتسبين إلى تعليم التفلسف بطرق مبسطة وحديثة ،و غيرهم من تلاميذ المدارس التقليدية ،و اثر ذلك على تنمية مستواهم الفكري الإبداعي ،كما نجد العديد من الدراسات و الاهتمامات لهذه الفلسفة التربوية القائمة على إستراتيجية شملت فئة الأطفال بفروقها .

هذا ما يؤكد حتمية تعليم أبناءنا للفلسفة، لتسافر بهم إلى التفكير في المفاهيم الحياتية الأساسية أيضا المواضيع المسكوت عنها بقمع من التنشئة الاجتماعية ،بحجة المحظور عن الطفولة دون وعي أن هذا الأمر يحد من القدرة الإبداعية للطفل ،لتساعده الفلسفة في مواجهة هذه الحواجز من خلال تنمية قدرة الفهم و تدريب العقل على التفكير للوصول للمعرفة الحق، فتصبح الفلسفة و كأنها الجسر الذي يربط الطفل بعالمه الواسع و العيون التي يرى بها واقعه و يدرك من خلالها تفاصيل حياته و أحداثها و يعي أموره و يتفاعل معها .

لكن الأغلبية حين سماعهم لتعليم الفلسفة للأطفال ،يخيل لهم أنها دعوة متجهة مباشرة إلى برامج الفلسفة التدريسية ،لذلك ستكون الفكرة غير مرحب بها بحجة عدم إمكانية تنزيل الفلسفة إلى عقول

هذه الفئة العمرية ،في حين لو نزلت فيها لجعلت منها زرعا منبتا من خلال تحويل دهشة الأطفال التي يشترك بها مع الفيلسوف أيضا إلى قناعات فكرية .

هو الأمر الذي نادى به أيضا باسيرز بقوله"إن الاندهاش يدفع بالإنسان إلى المعرفة، فحين أندهش أشعر بجهلي، ومن ثم أبحث عن الإجابات. فالتفلسف بهذا المعنى يرتبط باليقظة، والرغبة في الإفلات من روابط الضرورة اليومية بحثاً عن عالم الحرية. والفيلسوف أو الطفل حين يتساءل: ما هذا ولماذا؟ ومن أين جاء هذا؟ فهو لا ينتظر الإجابة عن الأسئلة من أجل فائدة عملية فحسب بل إنه يريد أن يشبع نهمه الذي لا يشبع للمعرفة" (باسير، 1967، صفحة 56).

بمعنى أن ممارسة فعل التفلسف في هذه المرحلة العمرية ،لا بد أن يكون بما يلائم من تفكير وشعور للقدرات العقلية، أي ممارسة الاستدلال المنطقي المبسط بطرق مختلفة كتعبير عن إعادة النظر في العلاقة المبنية على تساؤلات الأطفال و أجوبة الكبار ،التي غالبا ما كانت تنتهي بإقفال أبواب التساؤل و قمع الإبداع لتكون هذه الفلسفة الموجهة للطفل كمقدمة لبناء حياة فلسفية داخل كل إنسان ،حتى يفهم معنى أن يكون إنسانا.

فالأطفال أهل لممارسة فعل التفلسف لكن هذا لا يعني و لا يخص الأسلوب الفلسفي المتمثل في تقديم تاريخ الفكر الفلسفي المعروف في البرامج التعليمية إنما تكييف هذا الفعل كممارسة تلائم مستوى النمو العقلي و الذكائي وبناء الحس الاستدلالي والنقدي عند هذه الفئة الناشئة و هذا لا يعني بالضرورة أن الطفل غير ناضج فكريا فالتفكير الفلسفي ليس مقرونا بالنضج العمري بقدر ما هو قائم على خبراته المعاشة و المتبادلة مع بيئته و أقرانه كإخراج له من حالة الاغتراب التي وضع فيها بقمع من الكبار من خلال تضييق أفق تساؤلاته و حصره في مجال خُيّل انه ما يناسبه في حين أن دهشة الطفل أمر يشترك فيه مع الفيلسوف كونها دائمة الوجود بالتساؤل فيما هو موجود،لتكون نقطة الاهتمام بعقل الطفل كاهتمامنا بصحته الجسمية أمر ضروري و حاسم في بناء جسر نحو المستقبل .

لكن قبل الولوج في عملية صقل عقل الطفل بقاعدة فلسفية و تعويده على الانفتاح الفكري علينا أن نشيد طرق أو برنامج متين يدعم هذه العملية التربوية و لن تنجح هذه المبادرة التعليمية إلا بعد الاستغناء التام عن البرامج الحالية ذات الطابع التلقيني الذي يحد من قدرة الطفل على الإبداع و

التميز، و على إثر هذا الحرج ما هي الوضعية التعليمية التربوية التي ستنقد ممارسة فعل التفلسف من صورته التلقينية فيصبح منهجا حياتيا بعيدا عن كل طابع متعالي متجاوز لعالم الطفولة وانفتاحاتها الفكرية؟

3. البرامج التعليمية من أزمة التلقين إلى مصاحبة السؤال:

1.3. تشييد علاقة الفلسفة و الطفل كضمان للصحة الفكرية التربوية:

بعد أن صارت البرامج التعليمية كقوالب جاهزة بطابع تلقيني تعميمي في جميع القطاعات التدريسية ،التي بدورها أدت إلى الحد من القدرات التعبيرية و التفكيرية عند الطلبة، ما نتج عنه نقص في التفاعل الصفي بسبب خمول العقل عن التأمل و الإبداع ،هنا أصبحت ضرورة بلورة نظريات تربوية مغايرة بطرق حديثة أمر ملزم ،لخلق ديمومة و حركية في الصفوف التعليمية ،فكانت هذه الضرورة التربوية من أهم الأسباب التي دفعت بتحسين صورة التعليم و بيئة التعلم من خلال الدعوة الصريحة للنهوض بأساليب التعليم لتنمية قدرات الطفل الإبداعية ،و رفع مستوى الفكر عنده مع تشغيل طاقاته الكامنة ،من خلال ممارسة رغباته و ميولا ته، هو ما نادى به روسو كون الطفل يولد بذات إبداعية ،و بعقل مصاحب للسؤال و الدهشة الدائمة ،لتقمعه بعدها التنشئة الاجتماعية و تضيق افقه .

ما يجعل هذه التنشئة نقطة مهمة لدعم إبداع الطفل بدل العكس ،من خلال تكييف بيئة حاضنة لطاقات الطفل و تحفيزها و بداية هذا التكييف تكون بخلق تربية سليمة ، فيرى ريبور أن التربية هي العملية التي تسمح للكائن الإنساني بتنمية قدراته الجسمية و العقلية و كذلك عواطفه الاجتماعية والجمالية و الأخلاقية، بهدف تحقيق مهمته كانسان كون مرحلة الطفولة و الرشد وجهان لا ينفصلان و لا يكتمل فيها معنى الطفولة إلا بصقلها لتكون في صورة متكاملة مستقبلا ولا معنى الرشد بدون بناء طفل سوي بأسس متينة نابعة من الاهتمام بالتربية القائمة على التجربة المعاشة بخبرات الطفل و الموجهة من قبل المربي. لتكون ممارسة النشاط العلمي من أهم دعائمها الاعتماد على المجال المحسوس و المادي وتنميته بحكم الطفل في هذه المرحلة العمرية تشكل حواسه الأساس في حكمه على الأشياء ،و التعرف عليها لكن قبل ذلك لابد من تكوين جيد للمربي كونه

الموجه للعملية المعرفية ، لابد أن يكون على دراية بمراحل نمو الطفل و ما يحتاجه لاكتساب مهارات مختلفة، كما تميز و اهتم هذا المجال التربوي الحديث بالبيئة المحيطة تحديدا أقران الدراسة لبناء بيئة تعليمية داعمة و محفزة على الاكتساب و الاكتشاف ،و بحكم أن الطفل في مرحلته العمرية هذه و النفسية الشعورية الحساسة يؤثر و يتأثر بالأخر، ما يأخذ بنا أن نختار الصفوف التدريسية حسب قدرات الطفل و إمكانياته العقلية و الحركية كون النضج العقلي لا يرتبط بعمر الإنسان، بل بخبراته و تجاربه ما يعّزز و يحفّز الطفل على الإبداع الفكري كما أن تربية الطفل بحس فلسفي تشترط تعويض خاصية التّعاون بين الأطفال بدل التنافس بحكم أن هذه الخاصية تعلي صوت الطفل في العملية التعليمية أيضا إتاحة الفرصة أمامه لتحمل المسؤولية اتجاه نفسه والمحيطين به كما أنها تثري الكفاءة الخاصة لكل طفل و تعويده على حياة المجتمع .

و مما لا شك فيه أن الأطفال يفكرون و يتطورون و يكتسبون المعارف بصورة تختلف عن الكبار، أي أنهم ليسوا مجرد أجسام صغيرة ،فالطفل يولد بقوى عقلية خاصة تساعده على بناء صورته المستقبلية، فهي قوة فطرية طبيعية تحتاج الدعم للبزوغ ،و هذا الدعم ينطلق من فكرة إعطاءهم الحرية في الاستكشاف، لتكون الطفولة مرحلة عبور من خلالها إلى مرحلة الرشد ،كما يشترط هذا المنهج التربوي عدم الاهتمام بالطريقة التربوية بقدر نتائجها و "الآثار التي تحدثها في الطفل والطفل هو من يثبت قيمة هذه الطريقة بما يظهره تلقائيا " (مونتيسوري، 2004 ، صفحة 120) .

أيضا الاعتماد على التجربة المعاشة المباشرة في العملية التعليمية التعلمية، بدل الكتب المدرسية والدروس الجاهزة و المحضرة من طرف المربي له دور بارز في هذه الممارسة، ،انطلاقا مما يدور فيه من تساؤلات حول المظاهر المحيطة به ،لتكون المعرفة المكتسبة هي معرفة قائمة على إزاحة الضبابية عن دهشة الطفل، بحكم إن هذه المرحلة العمرية لا تحتاج إلى اكتساب معارف جديدة بقدر ما تحتاج إلى اكتشاف و الكشف عن الطاقات الداخلية الكامنة ،من خلال مثيرات حسية وهي عبارة عن العاب و وسائل تعليمية استفزازية لفكر الطفل، في شكل تصاعدي تدريجي حسب قدراته العقلية لكل مرحلة بخاصية فلسفية تبدأ بعقدة و غموض ،فيأخذ الطفل بتأمله إلى رسم وضوحها تدريجيا مع المحاولة و الخطأ مع إعطاء الأولوية و الاهتمام لبناء طفل بذات قادرة على اكتشاف الخطأ و محاولة تصحيحه ،اعتمادا على ذاته في العملية التعليمية عوض عقلية الامتحانات و النقط

و التقييم من طرف المربي و الذي نرى فيه برنامجا محبطا للقدرات الإبداعية ،فمن أهداف برنامجنا التربوي تأسيس و بناء طفل يحمل قدرا عال من الثقة بالنفس و الانفتاح على دروب الإبداع والتميز والتركيز و المثابرة و غيرها من السلوكيات المقومة.

ليكون هذا التجديد في البرنامج التعليمي كالمطرقة النيتشوية هادما للبرامج التعليمية التقليدية ،القائمة على أساليب التلقين و الحفظ الببغائي، فهو يعمل على تفعيل القدرات الكامنة و الخاملة عند الأطفال في المؤسسات التعليمية ،واكتساب المعرفة و التفاعل لتنتقل بنا من ثقافة التركيز على العلامة و التقييم إلى ثقافة الاهتمام بالقدر و المحصول المعرفي و الفكري.

إن أكثر ما يميز هذا البرنامج التربوي عن غيره ،هو اهتمامه ببناء تكامل بين الجانب الداخلي والخارجي للطفل ،فبعد أن تبنى بيئة ملائمة من أسرة داعمة محفزة للطفل إلى مربي بكفاءة و فراسة في التعامل مع الطفل في وسطه التعليمي لابد أن ننتقل إلى مرحلة الاهتمام بضرورة اكتساب المعارف ،من خلال القدرة على تحصيل المفردات و الانتقال من المادية الملموسة منها إلى المجردة و قراءتها بوضعها في صور ملونة تحمل نفس المفردات مثلا، ليبدأ الطفل مرحلته التعليمية بربط الصور و معانيها في مخيلته اعتمادا على حواسه كأنشطة تمهيدية، ترفع من مستوى التركيز عنده وقدراته على اكتشاف عناصر بيئته ،ما يتيح للطفل الفرصة لتحسين حركة نموه العقلي و تؤهله في المستقبل لاكتساب المزيد من الخبرات ،هذا ما أعدت له مثلا الفيلسوفة مونتيسوري بوضعها لأدوات يدوية يتم استخدامها كأداة محسوسة ،بحكم أن الجانب الحسي عند الإنسان و خاصة في هذه المرحلة العمرية له القدرة بشكل اكبر في تنمية الجانب الفكري و الإبداعي، ما يؤكد أن تربية الطفل وفق المنهج التربوي المهتم بإدخال الحس الفلسفي في ممارسات الأطفال أن تكون العملية هذه علما وفنا يتطلب مهارات تهدف لتحقيق التوازن الداخلي و الخارجي للطفل، و تنمية مهاراته مع تدريبه على التفكير المنطقي ،و تحقيق الذات باعتبار مرحلة الطفولة مرحلة أساسية في تشكيل بناء الإنسانية، لترى الفيلسوفة مونتيسوري أن الطفل يمر في نموه بمراحل بدايتها مع ما سمته مرحلة العقل المتسرب ،و التي عنت بها أنها الركيزة في بناء الطفل بحكم أنها مرحلة نموه اللغوي، ثم المرحلة الثانية و هي تتميز بتغيرات الطفل النفسية و الجسدية ،كما إنها مرحلة تشكيل الاستقلال

الفكري ،تليها مرحلة المراهقة و ما يظهر فيها من تغيرات جسدية و شعورية لابد من النشاط الفلسفي المونتيسوري أن يكون ملائما لهذه التغيرات ،بحكم أنها مرحلة نمو الاعتزاز بالنفس و بناء الثقة بالذات ،و أخيرا مرحلة النضج فنجد أن مونتيسوري لم تأسس نشاطات تعليمية لهذه الفترة العمرية ،لكنها اهتمت الأفراد الذين كبروا في حضن هذه الفلسفة التربوية و مساعدتهم في تنمية الذات.

ليكون الطفل كاستثمار عظيم و ناجح يعيش ممارساته الفلسفية لكل مرحلة وفق ما يلائمها، هذا التدرج في تدريب العقل على التفكير الناضج ساعد على قلب البرامج التعليمية و بناء الطفل بما يملك من مؤهلات داخلية ،فشخصية الطفل تتشكل أساسا على طاقاته الداخلية الخاصة به ،أي انطلاقا من تجاربه الفردية و المتفردة ،ليكون هذا البناء و التشييد التعليمي يقوم على ثلاثية بعلاقة تبادلية تنطلق من الطفل و طبيعته ثم الوسط الذي يستقبل فيه مكتسباته و معارفه ،و الذي يجب أن يكون متوافقا و متماشيا مع مؤهلات الطفل كحافز و دعم ايجابي له دور هام في رفع الروح المعنوية للطفل، إلى العنصر الثالث و هو المربي بحكم انه المسؤول عن التوجيه و الإرشاد فلابد أن يكون فنانا و معلما، فدوره يتركز خاصة على فتح عقل الطفل و توصيل المادة المعرفية بطرق سلسة تعتمد على وسائل الإيضاح القائمة على الصور و الأدوات المحسوسة ،أي التربية الحسية للطفل أيضا للقصة دور مهم في تحقيق الممارسة الفلسفية عند الطفل كونها تفتح عقله على التخيل و القدرة على ترتيب الأحداث بتسلسل منطقي عقلاني كما أن إدراج قضايا فلسفية و تجسيدها في أشكال قصصية بصور إيضاحية مسهلة لتلقي الفكرة له دور مهم في توجيه الفلسفة للأطفال كون الطفل له قدرة هائلة في الاستيعاب يحتاج فقط ما يدعم له هذه العملية التعلمية أبضا لتدحض من خلال هذه التقنية التعليمية النقل الحرفي للمعرفة ،الذي يحد من إبداع الطفل.

إن ممارسة هذا النوع من النشاط العقلي عند الأطفال يبدأ من خطواته الأولى مع الأسرة، خاصة مع الأم و الأب فهذه المرحلة مليئة بالأحداث الارتقائية و الفعاليات الحركية و المهارات العقلية ،لينبلج عند الطفل صورة من صور التفكير عن طريق الاندهاش في محيطه الذي يعيش فيه و التفاعل معه.

لينتقل بعدها لمرحلة الصلة المباشرة بين الخبرات الحسية والفعاليات الحركية ،بسبب العمليات العقلية و في هذه المرحلة لفلسفة التربية مكانتها الواضحة، من خلال البرامج

الفكرية ، وتكوين مجال فلسفي تربوي وفق مبدأ أن يؤهل كل طفل إلى حمل الشخص الذي سيكون عليه مستقبلا أي تكوين الطفل بدعم مؤهلاته العقلية و الفكرية ،التي ستجعل منه مستقبلا شخصا حكيما متمكنا على تسيير حياته، و مواجهة الحواجز باختلافها، و تنميته بصورة تكاملية فتكون الفلسفة و كأنها الوسيلة المنظمة للعملية التربوية ، *لتظهر رسالة الفلسفة الموجهة للأطفال من خلال* اكتساب القدرة على كسر القوالب الجاهزة، أي ما يدرس في البرامج التعليمية الحالية التي مهمة هذه الفلسفة أن تعصف بها والعمل على خلق ملامح فلسفية بشكل آخر مستحب من طرف هذه الفئة و من أحسن الطرق نجد الألعاب التعليمية ،التي نعتبر أنها فلسفة تم بناءها مع تشكيل حلقات في شكل ورشات تفاعلية، للتفكير الغرض منها الاستماع لوجهات نظر مختلفة ،لا بغرض التبارز والمنافسة إنما توسيع دائرة المعارف و ترسيخ قابلية رشف رأي الغير ،في جو تحاوري فالدرس الذي تقدمه الفلسفة للأطفال هو أن الأسلوب الإنساني الملائم لديمومة العلاقات بين البشر، هو الحوارية و هو الأسلوب الذي اعتمد منذ بزوغ الفلسفة كفكر قائم بذاته، مع سقراط و أفلاطون و الرواقيون وديكارت و غيرهم من الفلاسفة الذين وفقوا في اتخاذ الحوار أسلوباً للحياة ومنهجا واضحا لها وللتأكيد على أهمية الحوار كقيمة فلسفية و أخلاقية وتربوية هذا ما يؤكده المفكر حسن حماد في حديثه عن الحوارية كقيمة فلسفية قيمية " فإن الحديث عن الحوارية لابد وأن يجد نفسه مسوقاً بشكل لا إرادي في اتجاهين أساسيين هما: الفلسفة وإبداعات الأدب والفن. ويمكن لنا النظر إلى هذين الاتجاهين بوصفهما اتجاهاً واحداً، خاصة وأن كليهما يمثل رؤية خاصة للعالم والوجود... ولهذا يجب أن نعترف منذ البداية بأن الحديث عن الحوارية لابد أن يحتمي بقيم: الحداثة والتسامح والعقلانية والحرية، بل قد يتطلب الأمر قيماً أخرى مثل الحب والزهد والعدالة والتقدير" (حماد، 2016، صفحة 33) .

إن الدعوة لتشييد علاقة بين الفلسفة و الطفل الهدف منها ليس الإلمام بكل تفاصيلها ،إنما تكوين ملكة في الإحاطة بمبادئها و قواعدها المساعدة في تزويد الطفل المهارات اللازمة لخوض غمار الحياة ،و المساهمة في تطوير المجتمع، كونها لا تكتفي بخدمة الطفل كفرد وإنما تحقق مصلحة المجتمع أيضا بصنع استراتيجيات تتكفل بإنتاج طاقة فكرية؛

لتتلقى هذه الفلسفة رواجا هائلا في العالم و ما ميزها عن غيرها من الفلسفات التربوية هو أنها خلقت لتكون لتحضن هذه الفئة الناشئة ،وفق ميولا تهم و معاييرهم الخاصة بهم .

لقد أصبح هذه الفلسفة التربوية حالة يعيشها المجتمع الثقافي التعليمي، بعد اكتساحه أنحاء العالم فأصبح عدد المدارس المهتمة يتضاعف في غضون السنوات الأخيرة بشكل سريع ،لكن بالرغم من أن الفلسفة الموجهة للطفل بزغت ليس بالوقت القريب، إلا أن صيتها في البلدان العربية لم يتجاوز البضع سنوات، خاصة في دول الشرق الأوسط و شمال إفريقيا ،وبعد أن كثر التساؤل عن هذه الفلسفة التربوية الغير تقليدية ،خاصة مع وجود فروق بين متوسط درجات الأطفال الملتحقين ببرنامج تدرس الفلسفة مقارنة بالبرامج التقليدية ،ما جعل ثقة أولياء التلاميذ تكبر و بالأخص بعد ظهور نتائج ملموسة في تطور فكر أبنائهم الإبداعي من خلال حصول الأطفال الفلاسفة على نتائج جيدة في الامتحانات ،باختلاف المواد بداية من الكتابة و القراءة بشكل تلقائي إلى القدرة على التفكير في مواضيع كانت تتعالى عن مستواهم العمري ما يشكل لديهم الأهلية لممارسة الفعل التفلسفي القائم على النقد و البناء ،وهذا لا يعني أن المدارس التقليدية ببرامجها الكلاسيكية لا يحقق طلابها نتائج حسنة و لا هو بطعن في ما تقدمه من محتوى لكن ما تميزت به هذه البرامج وفلسفتها التربوية هي طريقة توصيل المحتوى التي تجعل من الطفل مفكرا في العملية التعليمية لا متلقيا ، كونها نظام يعتمد على المزج بين التربية و التعلم بجو حماسي معتمدا على طرق محفزة ،و إطار ممنهج بطرق فعالة ما يعزز عند الطفل الثقة في النفس و يدفعه لتحقيق ما هو أكثر، كما أن مستوى المدرس له دور في هذه العملية التعليمية بكفاءته العالية، لتكون هذه الفلسفة تتميز بإيمانها القائم بتطبيق شعار التعليم الأفضل يمهد الطريق لمستقبل مشرق ، من خلال تكوين أطفال مشبعين روحيا و فكريا "فطرق تربيتنا و تعليمنا لأبنائنا تؤثر تأثيرا كبيرا في نوعية المفاهيم التي نود إيصالها إليهم...و من هنا فان أي تقدم يطرأ على طرق التربية ينعكس إيجابا على المضامين الفكرية" (بكار، 2012، صفحة 19) .

إن هذه الفلسفة تعتبر احد الأنظمة العالمية القائمة على تطوير و إبراز قدرات الطفل ،فهي فلسفة تأخذ بمبدأ أن كل طفل في داخله صورته المستقبلية، و تعليمهم الخطأ و الصواب الذي أصبح للطفل القدرة على تقييمه بمفرده حيث أخذت بتقديم طرق بسيطة شيقة لاكتساب القيم الأخلاقية مثلا

بعيدا عن صيغها المجردة ،كأن توصل معنى العدالة باستعمال وسائل إيضاحية يلمسها الطفل بصورة يرى فيها فعل العدل ،كما نجد مبادئ هذه الفلسفة تسير وفق ما يتناسب مع البيئة الثقافية العربية و مبادئها ما يسهل على الطفل العربي القدرة على التكيف مع بنودها الفكرية التربوية.

إن هذه الفلسفة ليست بأسلوب تربوي دخيل على البيئة العربية ،فقط اكتسى حلة جديدة معاصرة فلهذه الفلسفة خلفيات مشابهة في تاريخ الثقافة العربية ،بتعدد بلدانها بحيث لو عدنا للزمن الجميل قبل بزوغ عصر التقنية كان للعربي الصغير حقيبة ضخمة من الألعاب و الأساليب التعليمية المحفزة و المنشطة للفكر الإبداعي كالأحجية التي كانت في شكل الغاز تتطلب تشغيلا و عملا ذهنيا للوصول إلى حل بجو من الحماس وسط الأطفال أيضا الحكايات الشعبية التراثية التي كانت تروى بطريقة شيقة تثير مفكرة الطفل و تفتح مخيلته على تصور الأحداث و نسجها في جو تحاوري ما يخلق لديه أهم أهداف هذه الفلسفة التي تصبو إلى تكوين طفل صغير بحس إبداعي كبير و منفتح "فالحوار مع الأطفال وتشجيعهم على القراءة و زيادة المكتبات و المعارض و شرح ما يصعب عليهم استيعابه و توفر العاب الذكاء لديهم كل هذا يساعد على امتلاك الصغار لقدرات ذهنية جديدة و هذا ما نتطلع إليه و ينبغي أن نحرص على إيجاده" (بكار، 2012، صفحة 19) وهو ما يحتضن ابرز المبادئ الفلسفية كفعل التخيل و الشعور و الإبداع و إدراك الأحداث كلها ممارسات لفعل التفلسف لابد من ترسيخها في هذا العقل الصغير بهدف أعمال و توجيه فكره لمواضيع واسعة متمردة عن طبيعة ما يلقن له .

عكس صور التعليم المبني على برامج متفق عليها من الجهات التعليمية المسؤولية لتصاغ و تعمم وتطبق كمنهج تربوي في بيئة تعليمية تسعى لبناء نمو معرفي كان للطفل فيه مكانة المتلقي لا غير ما جعله يقع في مشكلة التذمر من الدراسة و الهروب للعب بحجة صعوبة الاستيعاب و عدم القدرة على الفهم ما يدفع بتكوين جيل خمول لا يقوى على إخراج طاقاته الكامنة نحو الإبداع والتميز و الاكتفاء بالقوالب الجاهزة في سبيل تحصيل العلامات بغرض الانتقال من سنة تعليمية لأخرى واجتيازا لامتحانات بهدف الحصول على الشهادة هو الأهم ما يجعله يعيش شيخوخة فكرية محتومة.

هنا دق ناقوس خطر الجمود الفكري و تحويل الطالب بفئاته العمرية و التعلمية المختلفة إلى آلة فكرية مطبعية ما دفع بالتفكير في أساليب تنقذ هذا الصغير و تنهض به للانتقال من الذاكرة الحافظة إلى طابع الفهم والتفكير.

4. تحليل النتائج:

"إن الطفل قد اختص بقوة داخلية تستطيع قيادتنا إلى مستقبل أفضل فلا يجب أن يبقى التعليم بعد الآن مجرد إيصال المعرفة و لكن يجب أن يأخذ منحى جديدا و أن يهدف إلى إطلاق إمكانات الإنسان متى يبدأ مثل هذا التعليم؟" (مونتيسوري، 2002-2003، صفحة 10).

ما يؤكد على أهمية تبني مناهج جديدة لتنمية الفكر الإبداعي و النقدي لدى الطفل بحكم أن النقد نوع من أنواع الإبداع فكانت البرامج و الأساليب متعددة من فيلسوف أو مفكر لآخر لكن جميعها تشترك في مبدأ التعليم في صورة فعالة داعمة لطبيعة الطفل ما يجعل على المؤسسات الحكومية أن تتبنى هذه الفلسفة للنهوض بهذا الناشئ الصغير نحو التأمل و التفكير في مواضيع مختلفة مستوحاة من محيطه وبيئته فان أردنا الانتقال ببرامج التعليم نحو الرقي لا بد من جعل المؤسسات التعليمية العامة أكثر انفتاحا بطرق فعالة تسمح بالتجريب التربوي و الاكتشاف ليبدع "إن الإبداع يحتاج إلى مؤسسات تعليمية ممتازة و إلى اسر مهتمة و إلى حكومات و شركات تنفق على البحث العلمي بسخاء" (بكار، 2012، صفحة 10).

فيكون أكبر العوائق إمام المؤسسات الحكومية هو نقص في المساندة لهذه العصرنة الفكرية و عدم التفهم من طرف السلطات المسؤولة و كأننا نمارس فعلا دخيلا لا حديثا عن قطاع التعليم على الرغم من أن هدف هذه الفلسفة أن تعيش كحق للجميع بما فيهم الأطفال لتحقيق ذواتهم ليكون مسعانا من خلال هذه المبادرات التحسيسية الداعمة لفائدة الفلسفة الموجهة للطفل أن تصل لمبتغاها يوما ما فيكون الطفل حرا في طريقه إلى اشراقة المستقبل.

5. خاتمة:

إن التطور الهائل في مجالات التعليم و التعلم و الذي اخذ بانفجار معلوماتي ضخم مس كل المجالات الفكرية و العلمية و بتطور الأبحاث و الدراسات في تخصصات مختلفة جعلت من أساليب و مناهج التعليم و التعلم السبيل في تنمية المتعلم و النهوض به مع إكسابه المهارات الحياتية الأساسية لمواكبة التطور الكبير في محيطه فيؤثر و يتأثر به في علاقة تفاعلية كان لزاما لها أن تبلور عدة عوامل تأخذ بإستراتيجية ناجحة تتماشى مع هذا التطور لبناء مجتمعات ناجحة منفتحة بفكرها فكان الفضل الكبير في إنجاح سير هذه العملية خاصة لعلماء النفس والتربية والفلاسفة بإقامة دراسات عديدة تبحث عن الاستراتيجيات اللازمة في ضبط هذا التصور و ربطه بعقول الناشئة خاصة كونها الأمل في بناء مستقبل فكري مشرق فكان للفلاسفة و رجال التربية دور مهم في ذلك اعتمادا على ضبط الغرف الصفية بما يسمح بتطوير التكيف المدرسي بمستوياته المختلفة هو ما اهتمت به دراستنا لتكشف عن مدى فعالية و تأثير هذه الفلسفة التربوية و ذلك بتشييد برنامج تعليمي جامع بين التركيبة الداخلية و الخارجية للمفكر الصغير يدفع به لإثراء رصيده الأخلاقي و الفكري التربوي تشجيعا على الإبداع .

6. قائمة المراجع:

- حسن حماد. (2016). *دوائر التحريم: السلطة.الجسد.المقدس*. مصر: مصر العربية للنشر والتوزيع.
- عبد الكريم بكار. (2012). *تاسيس عقلية الطفل* (الإصدار ط2). المملكة العربية السعودية: دار وجوه للنشر و التوزيع .
- عبد الكريم بكار. (2012). *تأسيس عقلية الطفل* (الإصدار ط2). المملكة العربية السعودية: دار وجوه للنشر و التوزيع .

- كارل باسير. (1967). *مدخل إلى الفلسفة* (الإصدار الطبعة الأولى). (ترجمة وتقدير الدكتور محمد فتحي الشنيطي، المترجمون) مكتبة القاهرة الحديثة .
- ماريا مونتيسوري. (2002–2003). *التربية من اجل عالم* جديد (الإصدار 3). (ترجمة ملك مرسي حماد، المترجمون) القاهرة، مصر: دار الكلمة القاهرة مصر .
- ماريا مونتيسوري. (2004). *المرشد في تعليم الصغار*. (ترجمة جاد سلوى، المترجمون) القاهرة : دار الكلمة.